إلى علم أكبر ، وفضل أظهر ، ووقرت فى نفسه كلة الزبيدى الذى لقيه فى طريقه ، فتحدث إليه فوجده فصيح اللسان ، عبقرى الذكاء ، فقال له : أيها الفتى ! يعز علىّ ألا يكون مع هذه الفصاحة وهذا الذكاء فقه تسود به أهل زمانك ! وقد أراد الله ذلك ، فإذا الشافعى رجل من الرجال العالميين ، وإذا اسمه مسجل فى سجل الخالدين !

أما بعد ، فياصديقى العزيز : لا تَلْحَنى ولـكن أَعِنّى

محمد محمد المدنى

المدرس بكلية الشريعة

خواطر وصـــور

سجلها مرحى من الطريق بين القاهرة وبغداد

[إلى الأستاذ المازنى تسوق السؤال]

للأستاذ فخرى شهاب السعيدى

كانت مفازة رهيبة !

ولم يكن فيها من آثار الإنسان غير اثنين : هذه الأسلاك النحاسيّة المعلّقة فى الهواء على ركائز من الحديد الصابر المتين : تبيّن ما طُوِى من الشـقة ، وما ظل ينتظر الطىّ ؛ وهذا الطريق الأسود الطويل ... الذى لا تكاد تدرك العين والسيارة آخر ما يمس الأفق من تعاريجه ومرتفعاته ، حتى تتكشّف أمام العين مناظر منه أخرى ، وحتى تتبدى للسيارة منه تعاريج وأطوال ...

وكانت السيارة صابرة على هذا الأسود الممتدّ أمامها ، الهازئ بها ، الذى يمتحن صبرها بأعاجيب من عنده : فتارة يلتوى لها ، وأخرى ينحدر ؛ وطوراً ينحنى أمامها ، وحيناً يستدير ... وهى لا تعبأ بهذا الهازئ المتحن ، بل تمضى قُدُماً ، وصوت شهيقها وزفيرها ، وقلبها الخافق ، ودمائها الغالية ملء أسماع الركب الذين أسلموها القياد فى صبر واضطرار ! وكانت السآمة قد تَغَشّتهم جميعاً مما يتدفق أمام عيونهم من مناظر الصحراء ، وما كانت هذه لتعدو الرمال والجلاميد ، والهضاب العالية والوديان الخالية ، وكل ما يمثل الموت والسكون والجمود من آثار الطبيعة .

وما أشد صدوف الناس عما يذكرهم بمثل ذلك من آثار !

... كان بعضهم يزجى فراغه بالحديث يرفعه عالياً ليغالب زئير السيارة الذى ملأ الفضاء والأسماع ، ثم لا يلبث — هذا البعض — أن تتعبه المغالبة فيستنجد بالسكوت . وكان بعضهم يأكل ! نعم كان يقتل السآمة بالأكل . وبعضهم كان يقرأ . وكنت أنا من بينهم وحدى الذى طاب له أن يقصر عمله على اثنين : مطالعة هذه الصفحة الصحراوية ، الجميل خطّها ، المذهب متنها بفعل الرمال ، والمفضّضة حواشيها بإطار الأفق الجميل ؛ والتحدث إلى نفسى والأخذ منها والرد عليها فيما كان يحضرنى من أفكار ... وبين هذين العملين ، أو هذين الشاغلين - بكلمة أخرى - كان الوقت يمضى مسرعاً ، والسيارة تنهب من الأرض كيلو متراتها نهباً ؛ وكنت وجدت فى ذلك لى متعة كان يحظرها علىّ المجتمع لو أننى أضعت هذا الوقت فيه !

وعندى أن الأخذ من النفس والرد عليها ، ومحاورتها بألوان الأفكار ، ومناقشتها فى ضروب من الآراء ، مما يرتاح الإنسان إليه — أو أنا على الأقل ، فما أدرى ما حال الناس غيرى — ولقد تمرّ علىّ فى حال معينة وظرف بعينه لحظات أود لو أنى استطعت أن أكون من هذا المجتمع فى نجوة لألتقى تلك الصديقة الحبيبة ... التى هى نفسى ، فأجلس إليها وأداعبها وأعاتبها وأحاورها ، وأسمعها وتسمعنى فى صنوف شتى من أبواب الجد الهازل أو الهزل الجاد !

أما الصحراء هذه الصحيفة التى تنبسط أمامى جديدة من سفر الوجود ، فما كان أجلها ، وما كان أروع الجلال الذى كان يشع منها على النفس فيصغر من شأنها ، ويقلل من تيهها ، ويذلل من كبريائها ، ويصهر جوهرها صهراً يصفيه ويطهر الأعراق

كم من البشر — قبلنا — مروا بك أيتها الصحراء ؟ وكم ركباً قبل هـذا اقتحم مفاوزك هذه ، ثقةً منه بنفسه ، واعتماداً منه على قدرته ، واتكالاً على ما أوتى من علم ؟ وكم منهم نجا ، وكم كان فى الهالكين ؟ لم أنجيت من أسرك فريقاً ؟ ولِمَ اقتنصت فريقاً ، فأطبقت عليهم فى غير شفقة ولا رحمة ، ولا ذكر لذويهم الذين استودعوك قلوبهم وائتمنوك عليها ثقة منهم بعدلك فإذا أنت تضيعين الثقة وتخلفين الرجاء ؟!

كم - أيتها الصحراء - فيك من قوافل تسمع ولا تجيب ، وتحتمل وطأتنا إياها ولا تئن ؟ لم لا تطلقين هؤلاء من أغلالهم ،

وترديهم إلى أهلهم فتكسبى حبهم وشكرهم وثقتهم ، وتعودون — أنت وهم — بعض لبعض أحباباً ؟ ! ألا تعجبك أيتهـا الصحراء صداقة الإنسان ؟ !

يا لله !

ما لها لا تحير جواباً ! لعلها كانت تنطق فلا أسمع وترفع بالإجابة صوتها فتتلقاه أذنى دوياً لا تستطيع آدميتى فهمه واستجلاء معانيه !

وعدتُ أنظر إلى هذه التلال ثانية فإذا هى قد عتت وكبرت وتضخمت حجارتها واشتدت صلابةً وأيداً ؛ وقد علمتُ — حين سألتُ عن السر — أننا شارفنا أرض فلسطين ! ! فالقيمة إذاً تلبس لباس وقارها وحشمتها لتدخل الأرض المقدسة أرض المَعَادِ ! فما بالنا نحن — البشر — لا نلبس لهذه الأرض المقدسة لباسها كما تفعل الأرض ذاتها ، ولا نحييها باطراح شرورنا ونبذ ما ران على قلوبنا ، كما تصنع هذه الجلاميد ؟ ولقد هممت أن أقوم احتراماً ، بل لقد قمت فعلاً ، فما راعنى إلا أن أجلستنى السيارة المنطلقة فى عنف ، طالبة أن أكف عن الاسترسال فى هذا الخيال وأنصرف معها إلى ما هى فيه من جد وكد عنيف !

ولم نلبث بين هذه الجلاميد إلا ساعة أو نحوها حتى تبدت الأرض فى حلة من وشى جديد ، تختلط فيه خضرة العشب النضر بسواد الصخور الصم ، فكأن الطبيعة قد أرادت بهذا الجمع بين النقيضين أن تجيء بالبرهان القاطع على أنها لا تعرف هذا الذى تواضع الناس عليه من فصل بين شتى مظاهرها فى هذا الكون الذى هو معرض الاتساق !

وكان جيلاً أن يُرى ما كان يحسبه الإنسان من هذه الصخور الجرد مثالاً للقسوة وتمثالاً للجمود ينشئ الحياة النضة إنشاء ويخرجها أعشاباً طرية من بين الفرجات الصغيرة التى فيه ، ويجمع لها فى هذه الشقوق الماء الذى تحتاج إليه لترتاح له وتأنس بالمقام عنده وتطمئن — فى ضمان حياتها — إليه .

وكانت الجبال على أتم صلة بعضها ، فلا يفصل بينها شيء إلا صبغته بصباغها الأحوى ، وعلمته كيف ينساق لمشيئتها فى غير تردد ولا بطء : فالجداول الصغيرة ، والوديان الفسيحة ، وهذا القليل من رحاب الأرض المنبسطة ، ومخارم الجبال ذاتها أيضاً ، كل أولئك كان طائعاً لتلك الجبال يصل ما بينها ليظهرها أمام العين بمظهر واحد ينم على الألفة المتينة والوداد الجميل .

وكانت هذه المشاهد التى تطغى على القلب والعقل ، فتملأ ذلك غبطة وتزيد هذا إيماناً بالعجز أو سدوراً فى الضلال ، جديدة أمام عينى ؛ وكان كل واحد منها جديراً بأن أطيل النظر فيه لنتعارف ، ولكن السيارة كانت تأبى ، وحسبتُ أن ذلك قد يطول منا فنمتاقها عما هى وراءه من تقريب الشقة أمام هذا الركب الضجر الملول . وجدة المشاهد أمام العين تذكر بعهد الطفولة حين يخرج الواحد منا من ظلماته الأزلية إلى هذا النور الدنيوى — أو الذى نسميه نوراً وما ندرى من أمره حقيقة ولا ندرك كنهاً — فكل ما تقع العين عليه جديد لذيذ ، يبعث الفضول ويرهف الحس ويصب على الفكر وابلاً من الأسئلة الخالدة التى تطوف فى فكر كل ذى فكر ؛ ثم لا يلبث المرء أن تعييه الإجابة فينزل عند حكم المشيئة التى أرادت له مثل هذه الحواس المحدود إدراكها ، ومثل هذه القوة العاقلة التى يسرع التعب إليها قبل بدئها فى البحث عما هى وراءه من استكشاف المجاهيل !

ونبهتنى هذه الخواطر إلى ما للجهل من فائدة وفضل على الناس ، وأذكرنى هـذا بالنظرية التى تقول : إن كل شيء خيّر فى الطبيعة إذا وُضع فى موضعه وأُحِلّ فى المكان المناسب له . فالجهل مثلاً — وهو موضوعنا — يثير فضول القوى العاقلة لدى الناس ، ويعقد أمامهم مشاكل عويصة يعالجون حلها ، فكثيراً ما يضلون وقليلاً ما يهتدون . ولكنهم — وعلى أية حالة كانوا — تفيض السعادة والراحة على قلوبهم حين القصور ، وحين البلوغ على حد سواء ! !

وأذكر أنى كنت ذات مرة فى زيارة لخرائب بابل ، وكنت وقتذاك صبياً يحسب العلم وقفاً على المسنين . فسألت أحد الأدلاء — وكان شيخاً — وكان جاهلاً أميًّا — عما صيّر هؤلاء الآدميين الذين كانوا مثلنا من لحم ودم — حجارة ! فأجاب أو أجابت بديهته — فما كان عنده عقل يجيب — : غضب الله ! وقد ظللت أعتقد بصحة هذه الجملة التى انطلق بها لسان دليلى العامى حتى دخلت المدرسة فعُلِّمْتُ غير هذا ، ووعيت فى حافظتى كلاماً غير كلام الدليل ، علمياً منطقياً ، تقوم على تأييده والبرهنة على صحته حجج قواطع . فاستسخفتُ ذلك الساذج ، واستسخفتُ نفس ذلك الطفل الذى لم يحاكم القول الذى سمع ؛ ولكنى أشهد الله (تعالى) ، على أن نفسى اليوم لا تستطيب معنى أحلى ، ولا جملة أبلغ ، ولا فلسفة أعلى مما انطلقت به بديهة الرجل